مشكلات وقضايا نظرية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

ما هو النقد الادبى[1]

لعله يكون من المنطق أن نتساءل فى البداية "ما هو النقد الأدبى؟ "بدلا من أن نتساءل: ما هى اتجاهاته؟ وبالرغم من أن كلمة النقد – فى لغتنا العربية – كلمة تجرى بكثرة على أقلام الكتاب والباحثين، إلا أن المعنى الاشتقاقى لهذه الكلمة غير بادى الوضوح لأنها تنطوى على دلالة معيارية يرتد بها إلى الفعل الثلاثى فنقول "نقد – نقدا". وقد يكون نقد الشئ – فى العربية هى "تمييزها"، والكلمة تعنى الكيفية التى يظهر بها ذلك الشئ، ومن هنا فإننا نتحدث عن نقد الكتب، أى تمييزها، والنظر فيها، لنعرف جيدها من رديئها.

أما فى اللغات الأوروبية فأن كلمة Critique مشتقة من الفعل اللاتينى Krinem بمعنى "يفصل" أو يميز. وحين يميز الشئ عن شئ آخر، فى تلك اللغات فإن معنى هذا ان الباحث يؤكد وجود شئ يمكن تصنيفه مع نظيره من الأشياء التى لها صفات متشابهة معه بدرجة قليلة أو كثيرة. وهذا يظهر معنى أوليا لكلمة نقد وهو تميز شئ عن نظيره. ويمكننا إذا تتبعنا تطور كلمة "نقد" فى القرن السادس عشر، سنجد أنها ظهرت فى بادئ الأمر فى المجال الفلسفى للدلالة على تصحيح الأخطاء النحوية أو إعادة صياغة كل ما هو ضعيف فى المؤلفات الأدبية اليونانية. ثم تطور ذلك المصطلح فى القرنين السابع والثامن عشر، واتسعت حدوده حتى شملت وصف وتذوق المؤلفات الأدبية فى وقت معا.

---

(١) يمكن للقارئ أن يرجع إلى مادر الدراسة فى الملحق المشار إليه فى نهاية الكتاب.

أما فى القرن التاسع عشر، فقد استخدمه عدد من الكتاب والمفكرين بمعنى الحكم أو تفسير الأثر الأدبى أو تذوقه ويمكن أن يشف هذا المعنى من الدراسات التى أجراها "تين" و "برونتيير" وغيرهما من المفكرين الذين اعطو للنقد طابعا وضعيا نتيجة تأثرهم بمناهج العلوم الطبيعية التى ذاعت فى ذلك القرن. فالنظرة السريعة عبر الإتجاهات المختلفة فى ذلك القرن كفيلة بأن تطلعنا على أن أغلب المفكرين كانوا على الدوام يستخدمون كلمة "نقد" متأثرة بمنطق العلم الوضعى.

أما فى القرن العشرين – حيث تطورت العلوم الإنسانية واللغوية، نجد أنها (أى كلمة نقد)، قد استخدمت من قبل عدد من النقاد بمعنى فهم الأثر الأدبى والبحث فى دلالاته ومعانية.

ولكن من المؤكد أن كلمة "نقد" لا زالت تبدو كلمة غامضة، فهى تستخدم تارة بمعنى معرفة الأثر والحكم عليه أو فهمه، وطورا آخر بمعنى تفسيره. وهذا يعنى أن النقاد حينما يقومون بنقد أثر ما، فإنهم لا يتفقون على المعنى التجريبى الذى يضعه الواقع بين أيدينا وكأن كل ما يهمهم هو الوصول إلى الكشف عن المميزات الأساسية للأثر.

ولنتوقف الآن عند بعض الآراء المختلفة لكلمة نقد لدى جماعة من النقاد، حتى نقف على الدلالة العميقة لهذه الكلمة، التى طالما اختلف النقاد فى تعريفها، ولنبدأ بهذا الرأى الذى يقدمه لنا رولان بارت، انطلاقا من مفهوم الأثر نفسه، فهذا الأخير فى رأيه يعد بناءا رمزيا يتضمن فى ثناياه معانى خفية عميقة ومحاولة فهم هذه المعانى يحتم على الناقد ان يكتشف الطبيعة الرمزية للغة وهذا يدخل فى مضمار "علم الأدب" أما إذا اقتصر عمله على البحث فى احد معانى الأثر فإنه يدخل فى مضمار النقد الأدبى. وهذا يعنى أن البحث فى فهم المعنى الخفى للأثر يعد حجر الزاوية فى النقد الأدبى .

وعلى هذا الأساس فإن عمل الناقد يتسم بعده خصائص معينة. أهمها تعقيل الأثر الأدبى تعقيلا تاما، أى النظر إليه وإلى وحداته أو عناصره على ضوء مجموعة من المبادئ المنطقة.

ومعنى هذا ان النقد الأدبى له قوانين خاصة لا تجعل منه مجرد جهود نمت فى ظل أسس أو مفاهيم عشوائية. بل هى أسس مترابطة محددة تنظم الأثر على نهج مرسوم، وفقا لعمليات منتظمة خاضعة لقواعد معينة إلا وهى قواعد البنيات الأدبية.

فإذا ما انتقلنا الآن إلى رأى آخر فى النقد، إلا وهو رأى جولدمان، وجدناه يقرر أن النقد الأدبى أولا وقبل كل شئ هو الدراسة العلمية للأثر وهذه الدراسة تنهض على أساس فهم وتفسير الأثر تفسيرا مماثلا. ويشرح لنا جولدمان المقصود بالتفسير المماثل، فيقول لنا أنه استخلاص المميزات الخاصة للأثر المنبثقة من مجموعة علاقات منطقية مرتبطه بالملامح العامة للبنيات الكلية للمجتمع.

ومن هنا فإن ما يتميز به الأثر الأدبى هو أنه يبدو لنا على صورة علاقات بين البنيات الداخلية، وبالتالى فهو يوجد فى حالة استقلال عن العناصر الخارجية، انطلاقا من مفهوم بارت. أو يبدو لنا على صورة علاقات بين بنيات داخلية وخارجية فى وقت معا، حسب مفهوم جولدمان.

والواقع أن بارت يريد النظر إلى بنيات الأثر على أنها ظواهر مستقلة لابد من تفسيرها على حدة. بالاستناد إلى عناصرها الجزئية الخاصة، كما يريد مقابلة تلك الظواهر بعضها ببعض من أجل البحث عن أوجه التشابه فيما بينها.

ومن هنا فإن المهمة الاساسية التى تقع على عاتق الناقد إنما هى التصدى لأكثر الظواهر الأدبية شيوعا من أجل التوصل إلى المبدأ أو القانون الذى يحكم منطق العلاقات الداخلية للأثر.

والمهم فى نظر "بارت" هو أن الناقد لا يفهم الأثر الأدبى فهما تجريبيا على مستوى علاقات فعلية، بل هو ينشئها عن طريق النماذج التى تسمح له بفهم الأثر الأدبى فهما بنائيا، وهذا ما عبر عنه فى كتابه "دراسات نقدية" حين كتب يقول: "أن المبدأ الأساسى هنا هو أن مفهوم النقد يجب أن يرتد إلى المفهوم الشكلى وفق مفهومه

المنطقى البنائى، لا مفهومه الجمالى ". فعن طريق ذلك الفهم يمكن للناقد أن يؤلف نسقا أو نظاما من العناصر الشكلية للأثر. ونحن لا نريد فى هذا الموضع الدخول فى نقاش المنهج البنائى الشكلى، على نحو ما يفهمه بارت وإنما حسبنا أن نقول أن النقد فى نظره نشاط شكلى منطقى يعتمد على أسس خاصة تعمل فى البحث عن معنى أو دلالة الرمز الكامن وراء بناء الأثر.

ولو دققنا النظر الآن فى التعريفين السالفين للنقد لدى كل من جولدمان وبارت، لوجدنا أنهما يجمعان رغم اختلاف منظور كل منهما على أن النقد ينهض على الالتزام بمبادئ المنطق ومحاولة تعقيل الأثر تعقيلا تاما، وهذا يعنى أن الجوهرى فى النقد إنما هو اللغة العقلية الدقيقة. ولهذا فإنهما يؤكدان الخطأ الذى وقع فيه بعض النقاد حين عرفوا النقد بالاستناد إلى المفاهيم الجمالية المحضة.

أما القاعدة الأساسية فى رأى جولدمان، فهى أنه لا يمكن أن يكون ثمة "نقد" إلا حيث توجد لغة علمية. وآية ذلك أننا حين نتحدث مثلاً عن تحليل الأثر تحليلا علميا، فإننا نعنى بذلك أن الأثر يتضمن رمزا له دلالات خفية لا يمكن الوصول إليها إلا بالاعتماد على لغة علمية. ومن هنا، فإن أهم ما يميز آراء النقاد، هو أنهم يعترفون بأن لكل أثر لغته الخاصة، إلا وهى لغة الرموز أو العلامات – فيما يقول بارت – الخاصة بمجال ذلك الأثر.

وربما كان أهم ما يمتاز به تعريف بارت، أنه تعريف ينهض على لغة المنطق الرمزى، حيث يحاول إبراز أهم خواص البنيات والعلامات. فالنقد هنا يبدو بمثابة نشاط علمى، يسعى لفهم النظام الذى يسيطر على عناصر الأثر، باعتباره واقعة أنثروبولوجية[1] لا واقعة تاريخية، وهذا الفهم المنبثق من النزعة البنيوية، يعد من أبرز السمات الهامة التى تعمل على تزويد النقد الأدبى بطابع الدقة والصرامة فى وقت معا.

---

(١) واقعة لا تخضع للتغير، ولا تتوافر لها ابعاد تاريخية، أو اجتماعية أو نفسية.

وهنا نجد أنفسنا بإزاء تعريف آخر للنقد يقدمه لنا أحد النقاد والكتاب الفرنسيين المعاصرين، إلا وهو بيير ما شرى P.Machery، ويبدأ هذا الناقد فى دراسته المسماة "نحو نظرية للإنتاج الأدبى"، بعرض رأى موجز حول النقد ووظيفته يتلخص فى أن النقد شكل من أشكال المعرفة العلمية موجه نحو إضاءة وتفسير شروط انتاج الآثار الأدبية. ومهمة الناقد أن يقرأ الأثر قراءة لغوية وفنية ويحدد له مكانا داخل نظام الانتاج الأدبى عن طريق اكتشاف قوانينه اللغوية والفنية معتمدا فى ذلك على مفاهيم وفروض علم اللسانيات، ثم يعلق "ماشرى" على هذا التعريف فيقول: "إن النقد الأدبى يجعل من الآثار مجالا لبحوثه، وهذا الآثار الأدبية ترتبط ارتباطا وثيقا باللغة، حتى وأن لم تكن تلك الآثار لغة فى حد ذاتها."

ومن هنا، فإن الربط بين وظيفة النقد الأدبى، ولغة الأثر يحتل مكان الصدارة فى كل تحليل نقدى. وكأن النقد يرى أن مهمته، أصبحت مهمة لغوية، علمية، نظرا لأن أدراك البنية فى مجال اللسانيات. قد مد النقد الأدبى بمفاهيم علمية جديدة، مكنته من معالجة بعض مشكلاته النظرية والمنهجية. فالنقد البنائى كما هو معلوم ينصب على النماذج الأدبية التى تم انشاؤها، وهو بذلك لا ينهض على ضوء الواقع الأدبى التجريبى بل على ضوء النماذج الشكلية.

فالنقد البنيوى الشكلى يعطى الصدارة للغة الأثر، وللنماذج الأدبية على الواقع الأدبى التجريبى ويقدم المقولات المورفولوجية الثابتة على المقولات المتغيرة ومن هنا فإن النقد البنيوى الشكلى يبرز بمعنى ما من المعانى، التعارض بين التحليل البنائى الشكلى والتحليل البنائى الدينامى، أو بين ثبات الأثر وتطوره، خصوصا وأن النقد البنائى الدينامى لا يعتمد على مفاهيم ثابتة فى نظرته للأثر والواقع التجريبى.

وقصارى القول أن النقد البنيوى الشكلى فى تعامله مع الأثر يستهدف تحليل بنياته فى حين أن التحليل البنائى الدينامى لا يقتصر على تحليل بنيات الأثر، بل يمتد أيضا إلى ضرب من الدراسة السوسيوتاريخية لبنيات الأثر. ففى نظر الناقد البنائى

الدينامى أن بنيات الأثر الأدبى، فى حركة دائمة، وأن المحرك الحقيقى لتغير بنيات الأثر كامن فى صميم البنيات الاجتماعية والفردية، وفى الظروف التاريخية. هكذا يبدو لنا التعارض بين المنهج البنائى الشكلى الذى يضع دائما التواقت فى مقابل التطور، وبالتالى فإن الأثر الأدبى ليس سوى عناصر من الأشياء يكمل بعضها البعض الآخر.

ومن هنا قد يحق لنا أن نقف قليلا عند تلك التفرقة بين النقد البنائى الشكلى، والنقد البنائى الدينامى (التوليدى)، لنبين كيف أن الاهتمام ببنية الأثر قد دفع النقد البنائى الشكلى إلى التشديد على أهمية الاعتبارات المورفولوجية، بالقياس إلى الاعتبارات التطورية أو التاريخية، ولاشك أن أحد المسئولين عن هذا الاتجاه فى النقد هو "بارت" حين أعطى الصدارة لبنية الأثر واعتبره (أى الأثر) نمطا بنائيا رمزيا لا يؤدى وظيفته إلا بمقتضى طبيعته الرمزية.

ولو أننا تجاوزنا منطقة الكلمات من أجل فهم النقد بصفة عامة لوجدنا أن النقد الأدبى بأبسط معنى من معانية هو دراسة الأثر الأدبى دراسة تلتزم بمبادئ المنطق، بقصد اكتشاف القواعد أو القوانين التى تحكمه. ولعل هذا ما حدى ببعض النقاد إلى القول بأن كل دراسة نقدية لابد أن تكون علمية، ولو تساءلنا ما الذى يدرسه ذلك العلم؟ لكان الجواب عند "بارت" أحد معانى أو دلالات الأثر. وحين يكون على الناقد أن يختار هذا المعنى أو ذاك، كمنظور علمى من أجل وصف او تفسير بعض الموضوعات الأدبية العينية، لتكوين وجهة نظر خاصة بصدد مجموعة من الموضوعات فى الواقع الأدبى، فأنه يضطر أن يقوم بصياغة نموذج فى بناءه الذهنى. أما حينما يعتمد على مفهوم البنائية الدينامية (التوليدية)، لا يضطر إلى صياغة نموذج معين نظرا لأنه يدمج بنيات الأثر فى بنيات الواقع.

ولا شك أن المفهوم الأول (البنائى الشكلى) ينظر إلى الأثر الأدبى نظرة استاتيكية، بينما المفهوم الثانى (البنائى الدينامى) ينظر للأثر نظرة تطورية. والذى يهمنا من هذه النظرة أو تلك هو أن تعريف النقد بوصفه علما لابد من أن يقودنا إلى

رفض تلك الانطباعات الوجدانية، التى يدركها الناقد نفسه من خلال قراءة الأثر مع استبعاد كل صور التأثر التى نحصل عليها من معايشتنا لعالم الأثر.

ومن كل ما تقدم يمكننا أن نفهم مغزى قول "بارت"، أن الأثر الأدبى ليس واقعة تاريخية، وإنما واقعة أنثروبولوجية بحكم بنائه الذى يتميز بالانغلاق وبانطوائه على عدد محدد من القواعد".

ولا يبقى لنا فى ختام هذا الفصل سوى الاهتداء إلى تعريف والرأى عندنا، أنه على الرغم من تعدد التعريفات التى قدمها النقاد المختلفون لهذا اللفظ، فإنه من الممكن الاجماع على الأخذ بالتعريف الذى قدمه لنا "ماشرى"، فى بداية مؤلفه حين قال: "أن النقد نشاط تأملى يسعى لإجلاء القواعد والقانونين المضمرة فى الآثار الأدبية "ولا شك أن من مزايا هذا التعريف أنه عام يصدق على جميع الاتجاهات النقدية بما فيها النقد البنائى، والنقد السوسيولوجى والنقد النفسى بإستثناء النقد التفكيكى الذى سنتحدث عنه فى موضع آخر من الدراسة.

ولكن النقد البنائى الشكلى – نظرا لأنه قد كان فى اصله ثمرة للنجاح الذى أحرزته علوم اللغة فقد حرص على تأكيد حقيقة أخرى هامة، إلا وهى أنه لا يمكن أن يكون ثمة أثر إلا حين تكون ثمة لغة. ولم يكن انتشار النقد البنائى الشكلى فى جامعات أوروبا وأمريكا إلا لاقتناع النقد الاكاديمى بأهمية مفهوم الرمز فى الأثر الأدبى.